(٩)

أصل .. وصورة*

عندما تحول التاريخ من حكاية أو أسطورة أو مثل يضرب للعبرة والنكتة إلى علم له أصول ومنج ومنطق لم يعد المؤرخون يقولون إن التاريخ يعيد نفسه لأن الحادث وهو وحدة التاريخ كما أن الأمير هو وحدة الكهرباء لا يتكرر إلا إذا تجمعت نفس الشخوص والظروف والأفكار التى فى الرءوس على نفس الهيئة مرة أخرى، ومادامت هذه كلها لا يمكن أن تتجمع على نفس الشكل مرة ثانية أو ثالثة فإن الحادث لا يمكن أن يتكرر والتاريخ لا يعيد نفسه ولا يدور فى الحلقة الحلزونية المشهورة قط إنه يسير فى خط مستقيم والماضى لا يبعث حيا قط. وعبرة التاريخ وهم كاذب وإذا كان الناس يعتبرون بالماضى فلماذا تسوء أحوال الإنسانية كلما طال التاريخ؟..

إلا بالنسبة للعرب!..

فإن تاريخهم قد تجمد عند صورة واحدة من قرون طويلة كأنهم طفل معوق توقف ذهنه عن النمو فى سن معينة، شىء ما حدث للعرب وأوقف تقدمهم الذهنى فأصيبوا بتخلف ذهنى مزمن، ومن التخلف العقلى نشأ التخلف الحضارى، حادث مروع ما حدث للعربى فى فجر تاريخه فأصيب بحالة مخيفة من الأمنيزيا أى فقدان الذاكرة هذا الحادث ربما كان سقوط الخلافة فى يد معاوية الطليق بن الطليق، وربما كان مقتل الإمام على ابن أبى طالب، وربما كان اغتيال الإمام الحسين وآله فى صحراء كربلاء (كرب وبلاء).. حادث مروع كان له وقع الصدمة، والعربى الفاتح العظيم نسى أنه فاتح عظيم بل نسى أنه مسلم، وارتد مع السنين

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ سبتمبر ١٩٨٢م.

القهقرى حتى أتى فرعون وكسرى وقيصر وعمرو بن كلثوم بين طعامهم وشرابهم إذا جاز لى أن أضمن فى كلامى قول شوقى العظيم فى بيته المشهور..

وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعامه وشرابه

والخليفة الذى قام ليحكم بالقرآن وسنة محمد سيد الخلق نسيهما وارتد إلى كتاب عهد اردشير يطبقه غير واع إلى ما يعمل، وخلع البردة ووضعها فى دولاب الذكريات وليس الطيلسان والتوجا وثوب الارجوان، وخلع العمامة ولبس التاج، وألقى بسيف المجاهد وأمسك بالصولجان فى يد والسوط فى يد أخرى وبسط النطع ونادى السياف..

وتحت رعب النطع والسيف أصبحت الأمة رعية، والناس أصبحوا غنما والعبد المملوك أصبح سلطانا، وصدق علينا قول أبى الطيب:

انما الناس بالملوك وما
تصلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب
ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم
ترعى بعبد كأنها غنم

والعدل أصبح سجونا ومغارم ومذابح، والمساجد أصبحت بيعا ومعابد، والعربى المسكين، ذلك الصبى المتخلف غرق إلى رقبته فى الدم والطين ومازال يردد كأنه شريط كاست..

إذا بلغ الوليد لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا

ومرت القرون، والعربى التعيس يردد هـذا البيـت وبقيـة معلقـة عمـرو بـن كلثوم، وبالأمس فقط رددها الفلسطينيون الذين خرجوا إلى المنفى فى قارب يجرى فى بحر الدموع، ولكن المجاديف تتحـرك علـى وقـع معلقـة ذلـك الشاعر الذى سمى نفسه ملكا وقام حافيا عاريا يهز سيفا من خشـب علـى ظهر ناقة عجفاء وهو يقول:

ألا هبـــى بصحنـــك فأصبحينـــا
ولا تنســـى خمـــور الأندرينـــا

واليوم – ياولداه – يرددها أسد عربـى يـهرول ويـبرطع طالبًـا جحـرًا فـى دمشق وهو يقول للأعداء: لن نترك سهل البقاع حتى الموت!..

وقف العرب مكانهم – إذن – ولم يعودوا يصنعون التـاريخ. وإذا عجـز شعب عن أن يصنع تاريخ نفسه صنعه الآخرون من دونه، وجعلوا تاريخـه حاشية أو ذيلا على تاريخ بلادهم، وهكذا أصبح تاريخ العـرب ذيـلا علـى تاريخ الأتـراك، ثـم تعليقـا علـى تـاريخ الإنجليز والفرنسيين، واليـوم – باللحسرة – يكاد يصبح شرحًا لتـاريخ إسـرائيل، وفـى يومنـا هـذا يصوغ تاريخ العرب فى صورة قرارات ومراسيم جلالة الملك رونالد ريجان الأول..

ولابد من عملية جراحية خطيرة لإخراج هذا الصبى المسكين مـن نكبـة التخلف، فإذا لم يتيسر ذلك فلابـد لنـا – أهـل الفكـر مـن أن نضـع رأس العربى تحت الأشعة الوحيدة التى نملكها وهى شمـس الفكـر التـى نبـهنا إليها شيخ الفكر فى عصرنا توفيق الحكيم، وتحـت شمـس الفكـر لابـد أن يخرج ذهن العربى من ظلمات الماضى، لأنه أصبح كخفاش تعلق فى ظـلام ظلام الليل بغصن شجرة وجعل رأسه موضع قدميه، وهل يمكـن أن يكـون هذا الذى نراه إلا تاريخ قوم وضعوا بالفعل رءوسهم حيـث كـان ينبغـى أن يضعوا أقدمهم؟ وليس فى الدنيا تاريخ ممل مسئم مثل تاريخ العـرب، إنـه صور متكررة يلى بعضها بعضا، أصل واحد كتبه معاوية بن أبى سفيان ثـم

نسخت منه مليون صورة، والأمويون هم العباسيون وهم السلاجقة والأيوبيون والمماليك والمرابطون والموحدون والأتراك العثمانيون، وابن خلدون معذور عندما أراح نفسه وقال إن تواريخ الدول جميعا يتألف من ثلاثة فصول: الفصل الأول فصل الإنشاء والثانى فصل التثبيت والثالث فصل السقوط، مسرحية بليدة رأيناها واكتوينا بنارها ألف مرة ونحن أمة العرب متسمرون على مقاعد بليت من تحتنا لطول ما جلسنا عليها، وعندما نهضنا فى العصر الحديث وأقسمنا ألا نعود إلى هذه المقاعد قط، وقررنا أن نقفز نحن على خشبة المسرح لنمثل مسرحيتنا بنفسنا وجدنا أنفسنا نكرر نفس المأساة نفس المسرحية ذات الفصول الثلاثة، لأننا قبل أن نقفز إلى المسرح ونقف تحت الأضواء كان ينبغى أن نذكر آية واحدة من آيات القرآن الكريم كتاب النور ولا نور سواه، والآية تقول﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ التغيير ينبغى أن يبدأ من الداخل ولا يمكن أن يكون هناك تغيير حقيقى مادام التغيير يقتصر على الديكور هنا ولكى نصل إلى مسرحية جديدة ينبغى أن يتغير النص نفسه، ولكى يتغير النص لابد أن يتغير المؤلف والمؤلف الجديد ينبغى أن يستوحى القرآن، والله سبحانه أكرمنا بالقرآن لنقرأه ونفهمه ونعيش به فجلعناه نحن تحفة مذهبة نضعها فى صناديق من المخمل نتهاداها كأنها علب المصوغ توضع فى الخزائن، نسينا أن الله سبحانه سماه قرآنا لأنه أتانا ليقرأ فهو ديوان الحكمة كلها والعلم كله، ولكن الحكم لا تنفع الصخور، والعلم لا ينفع قطعان الرعايا..

دارت هذه الأفكار فى ذهنى وأنا أقلب صفحات تاريخ الثورة العرابية، ومن حين لحين أطوى الكتاب وأفتح الراديو لأسمع أخبار مأساة الفلسطينيين فى لبنان، أو مأساة اللبنانيين فى بيروت وأشعر أن الذى اقرؤه فى الكتب عن عرابى وثورته هو نفس ما أسمعه بأذنى عن ياسر عرفات وثورة فلسطين.. الفلسطينيون هنا هم العرابيون، والعرابيون من مائة سنة أرادوا أن يوقفوا دورة الزمان الشريرة ليبدأو – كتابة تاريخ جديد

لأمنهم، وأحمد عرابى فلاح هرية رزنة مركز الزقازيق شرقية هو نفس عبد الرحمن رءوف عرفات الشهير بياسر عرفات عربى القدس، وخروج ياسر عرفات من بيروت إلى المنفى على يد إسرائيل هو نفس خروج أحمد عرابى وأصحابه من ميناء السويس منفيين إلى أرض سرنديب بأمر من الإنجليز، وفى ميناء كولومبو كان فى استقبال عرابى وأصحابه أعيان سيلان والإنجليز واستقبلوهم بالأحضان، بالضبط كما يستقبل الحبيب بوقيبة ياسر عرفات فى ميناء تونس ليقوده بعد ذلك إلى سجن ذهبى هو جناح فاخر فى فندق سلوى فى برج سدرية على بعد ٢٥ كيلو مترا جنوبى تونس العاصمة، وفى السويت الفاخر سيجد ياسر عرفات مصحفا فى علبة من مخمل، ولكنه لن يفتحه، بدلا من ذلك سيفتح الراديو أو التليفزيون. أما بقية المجاهدين الفلسطينيين الذاهبين إلى تونس فيستقرون فى مدينة خيام أقيمت لهم فى الصحراء بجوار مدينة باجة على بعد ١١٠ كيلو مترات بعيدا عن مدينة تونس حيث مقر جامعة عربية طريفة يهيمن عليها عمرو بن كلثوم جديد يسمى الشاذلى القليبى وعمله الرئيسى ترتيب مؤتمرات قمة يردد الخطباء فيها أبياتا من معلقة الوليد الذى تخر له الجبابر ساجدين..

الصورة هى الصورة والحوادث هى الحوادث وأنت – وفى ذهنك ولاشك صورة خروج الفلسطينيين من بلادهم هاربين فى سنة ١٩٤٨م ثم فى سنة ١٩٦٧م وهاربين من الأردن أثناء مذابح أيلول الأسود ثم خروجهم الأخير من بيروت ولبنان، وهذا كله فى ذهنك – أرجو أن تقرأ معى صفحة من تلك الصور البشعة التى يصور فيها الكاتب السويسرى جون نينيه خروج المصريين من بلدهم الاسكندرية عندما ضربها الأسطول الإنجليزى بنيران مدافعه فى ١١ يوليو ١٨٨٢م بعد أن لجأ الخديو توفيق إلى الأسطول الإنجليزى يحتمى به من العرابيين أهل البلد المطالبين بالحرية، فقد انضم توفيق إلى الإنجليز وركب سفينة الأميرال سيمور ليكون

آمنا، وأذن للأسطول الإنجليزى فى ضرب بلاده، وكان عرابى فى القاهرة يحاول أن يرتب الدفاع، وقاد معركة الاسكندرية طلبة عصمت باشا، وكان رجلاً باسلاً ولاشك، وهو من كبار العسكريين فى تاريخنا، ولكن ماذا يفعل القائد إذا كان سلطان البلاد وولى أمرها قد انضم إلى الأعداء وأصدر أمره بأن رجال التحرير عصاة يقول جون نينيه: وترك المدينة – الإسكندرية – مائة وخمسون ألفا من السكان مجردين من كل شىء أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا مأوى والموت والفزع ملء نفوسهم، على خطوط المحمودية إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة، وكانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة أخرى رقيقة، متحركة فى كل جهة، أشبه بسلسلة إنسانية طويلة، هنا ينزلون وهناك يمشون ببطء لا وقاية ولا حياة، والسماء على نقيض ذلك زرقاء صافية والأرض خضرة نضرة..

ثم يقول: وأما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كماء انكسرت جسوره فتدفق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين فى حالة عقلية أشبه بالجنون يسوقون أمامهم أو يحملون على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم، فى هذه الحالة: حالة شعب طرد من دياره، كان الحر شديدا، وسحب من الغبار تسد الأفق والجو مظلم، ونساء يبحثن عن أولادهن، يتشاجر بعضهن مع بعض ويتضاربن فى فوضى يعجز التعبير عنها، وعربات بلا عجلات استعملت مساكن، عربات من كل نوع بعضها واقع فى المحمودية وبعضها مقلوب وبعضها بخيل وبعضها بلا خيل وروائح شى اللحم تملأ الجو والناس يصيحون: الخبز! الخبز! «وهذا الوصف نجده أيضا فى كتاب تاريخ الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده) للشيخ رشيد رضا (جـ ١ ص ٣٥٢ وعبد الرحمن الرافعى، (الثورة العرابية ص ٤١٧)..

ومن الذى ضرب الإسكندرية وأفزع أولئك المصريين وجعلهم يغادرون مدينتهم ويهيمون على وجوههم على هذه الصورة المؤسية؟..

الإنجليز الذين قرروا غزو مصر واحتلالها..

ولماذا تصرف أهل الإسكندرية على هذا النحو؟..

لأنهم كانوا بغير قيادة، والجماهير إذا تركت بغير قيادة ملكها الرعب وأصبحت فى حالة روع (بانيك)، فانطلقت على وجوهها هائمة لا تدرى ماذا تصنع، شأنها فى ذلك شأن طيور روعها طلق نارى..

فأما قائد البلاد الرسمى وولى أمرها الشرعى الخديو توفيق فكان قد تخلى عن شعبه واستدعى الأجانب لكى يكسروا شعبه ويعيدوه إلى عرشه..

وأما قائده الحقيقى وهو أحمد عرابى فكان رغم صدقه وإخلاصه أقل بكثير من المهمة التى تصدى لها، وعرابى نفسه كان يشعر أنه أقل من المسئولية، ولكنه بدأ الثورة ولم يكن له مفر من الاستمرار، وعرابى لم يدرس عسكرية ولا جرب فى سياسة، إنما هو كان مواطنًا مصريًا شهمًا ولا زيادة، وقيادة الثورات تحتاج إلى أكثر من الشهامة، لأن القائد إذا نادى بالثورة وحرك الجماهير ينبغى أن يكون قادرا على القبض على زمامها وإلا ضلت وداسته هو تحت أقدامها، فهى تندفع كالسيل فى فزع جماعى مذعور حينا، وبالغ الحماسة حينا، وعرابى أطلق الثورة العرابية من عقالها، فلما انطلقت الجماهير لم يدر ماذا يفعل، والموقف دون شك كان أكبر منه وأكبر من عبد العال حلمى وعلى فهمى، وقد عجزوا جميعا عن قيادة الثورة، خاصة أن الخديو توفيق ومن معه من الشركس والترك والأروام والإنجليز والفرنسيين وقفوا موقف العداء من الثورة وفضلوا الخيانة على الشرف، وقد كان دانتون وميرابو وروبسبير رجال ثورة حقيقيين، وكان لديهم من العلم والخبرة أضعاف ما كان لدى أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى، ولكن الثورة التى حركوها كانت أكبر منهم فأكلتهم،

ولقد كان ميرابو (أو نوريه جابرييل كونت ريكتى) من أعظم الثوريين فى التاريخ، وهو الذى تصدى لرسول الملك عندما أمر أعضاء الجمعية العامة الفرنسية بأن ينفصل بعضهم عن بعض فيكون نواب الشعب وهم الذين يمثلون الطبقة العامة الفقيرة أو ما يسمى بالطبقة الثالثة فى قاعة وحدهم منفصلين عن الأشراف ورجال الدين، وقال ميرابو فى ليلة ٢٣ يونيو ١٧٨٩م كلمته المشهورة: نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح أماكننا إلا على أسنة الحراب! وهى كلمة دخل بها التاريخ فهى التى أطلقت عقال الثورة الفرنسية، وبعد ذلك بثلاثة أسابيع (١٤ يوليو) كان اقتحام الباستيل والطوفان، وهنا اضطرب ميرابو وأفلت الزمام من يده كما أفلت من يد أحمد عرابى، وفى ٢ أبريل ١٧٩١ كان على وشك أن يساق إلى المقصلة لولا أن أدركه الموت، فإذا كان هذا حال ميرانو وهو شيطان من شياطين الثورة والتمرد، فما بالك بالرجل الطيب عرابى الذى أطلق عنان الثورة العربية بكلمة رائعة قالها فى ميدان عابدين فى التاسع من سبتمبر ١٨٨١م كلمة أطلقت ثورة شعب نهض من سبات القرون، ولكن عرابى فى الحقيقة فقد عنان الثورة من ساعة انطلقت شرارتها الأولى، كانت مواهبه أقل من الموقف بكثير، خاصة وقد أحاطت به الخيانة من كل جانب، وعلى رأس الخيانة الخديو نفسه ورئيس وزرائه مصطفى باشا رياض، ومصطفى رياض يقال إن أصله يهودى من سلانيك (تصور التطابق مع الثورة الفلسطينية) وإن كان عبد الحمن الرافعى قد انخدع بأن أسرته كانت تحمل لقب الوزان وأن هناك من يقولون إن أسرته أتت من المغرب، وهذا فى ذاته يؤيد أصله الإسرائيلى، فقد كان شيكوريل وشملا وعدس وبنزايون – وهم من أقطاب الجالية اليهودية فى مصر فى عهد الإحتلال – كانوا جميعا من يهود المغرب، وهاجروا إلى مصر بجوازات سفر بريطانية من مالطة..

ونلتفت إلى الثورة الفلسطينية التى أطلق عقالها سنة ١٩٤٨م سبعة ملوك ورؤساء دول لا يملكون فى مجموعهم من خصال السياسة إلا واحدة: اللؤم، وقائد القوات التى دخلت أرض فلسطين لتحريرها صباح ١٥ مايو

١٩٤٨م كان موظفا فى الحكومة البريطانية يتقاضى منها راتبا مثله فى ذلك مثل السير صمويل هور المندوب السامى البريطانى لفلسطين تحت الانتداب! اختاره الصهيونيون ليسلمهم فلسطين، قائد الجيوش العربية اسمه الملك عبد الله وكانت الهزيمة أليمة لسبعة جيوش نظامية أمام جماعات عصابات، والملوك السبعة خرجوا من الميدان وتركوا فلسطين بين يدى رجل يسمى أحمد الشقيرى وكان رئيسًا عجيبًا لمنظمة تحرير مقاتلة، لم يكن يملك من أدوات السياسة إلا الكلام فى نفس الوقت كان يتولى قيادة ثورة فيتنام رجل لم يسمع أحد له صوتًا طول حياته هو: هو – شى – منه، والرئيس هو – شى – منه الصغير الحجم الذى لم يخطب فى حياته خطبة أطول من خمس دقائق كان قطعة من الصخر الصلد والإرادة الحديد والذهن المتألق لكى يكسب معركته مع الفرنسيين ظل يتمرن عشرين سنة ودرس الثورة والعسكرية فى موسكو وترك الجنرال جياب يتصرف وحطم فرنسا فى بيين بيين فو، ثم التفت إلى أمريكا – لا إلى إسرائيل – وأذاقها الويلات وخلق لها عقدة نفسية فى تاريخها لم تتخلص منها إلى اليوم..

أما صاحبنا أحمد الشقيرى فقد بدأ ساعة قيادة المنظمة خطبة استمرت طوال مدة رياسته ولم يقفل فمه إلا عندما عزلوه، وهم لم يعزلوه إنما ألقوه خارج الباب واختاروا ياسر عرفات..

وياسر عرفات كانت ولاتزال معه أموال لم يحلم بمثلها أحمد عرابى، إنه قائد أغنى ثورة فى التاريخ. إنها ثورة مليونيرة فى حين أن هوشى– منه عندما وقع الاختيار عليه ليقود ثورة الفيتنام كان طالبا فقيرا مسكينا فى أحد معاهد الماركسية فى موسكو..

وياسر عرفات – مثله فى ذلك مثل أحمد عرابى – لم يتم تعليمه فى سن الحادية عشرة دخل ميدان السياسة واشترك فى المظاهرات فى القدس، وفى السادسة عشرة التحق بكلية الهندسة فى جامعة القاهرة

ولكنه لم يكمل تعليمه وذهب ليدخل صفوف المجاهدين، ظل إلى جانب الشقيرى سنوات طويلة، ومن أستاذ لا يعرف شيئًا لا يتعلم الإنسان شيئًا، ثم تولى قيادة الحركة فكان الشقيرى، وقيل اثنتى عشرة سنة من يومنا هذا أتيحت له فرصة لم تتح لقائد ثورة قبله: رجال متحمسون وشباب متعطش للجهاد بلا عدد وخزائن قارون فتحت له ليأخذ ما يريد وميدان كامل يستطيع أن يستعد فيه استعدادًا طيبًا، الميدان هو نصف لبنان الجنوبى كله، وروسيا فتحت له خزائن السلاح وبدلا من أن يتركز فى قرية صغيرة فى تلال لبنان ويستعد على مهل: يتعلم ويعلم من معه استقر فى بيروت فى قيادة فخمة ضخمة وأنفق معظم وقته فى التنقل بين العواصم العربية يجمع الأموال ويحصد البركات والتمنيات ويتمتع بالتصفيق هوشى - منه خلال سبع سنوات أعد جيشا عدته نصف مليون رجل، وياسر عرفات خلال اثنتى عشرة سنة لم يزد عدد جيشه على ثمانية آلاف أو تسعة آلاف وبدلا من التدريب الجيد والدراسة العميقة لإسرائيل - وهى خصمه - وأساليبها فى القتال افتتح لحركته مركزًا دبلوماسيًا فى كل عاصمة من عواصم الدنيا، وعندما قررت إسرائيل أن تصفى حركتُه من لبنان كنا نتصور أنه جعل الأراضى التى فى يده سلسلة من القلاع التى لا ترام، وكنا نتصور أنه عرف كيف يختار المدافع والصواريخ ويعد الرجال الذين يطلقون المدافع والصواريخ..

وقد كنا بالأمس نعجب من أمر الأرجنتين التى أعلنت على بريطانيا حربا هوجاء دون استعداد كاف، وقد خسرت الأرجنتين معركتها، ولكنها على الأقل أغرقت لبريطانيا بارجتين وأعطيت أربعا أخرى بلا أمل وأسقطت نحو عشرين طائرة بريطانية، أما عندنا فى لبنان فما كاد الإسرائيليون يعبرون الحدود حتى انسحبت المقاومة الفلسطينية إلى بيروت دون قتال تقريبا: لا حصون ولا خنادق ولا كمائن مدافع ولا مدافع ضد

الطائرات أو ضد الصواريخ، ومصر فى أحلك أيام صراعها مع إسرائيل أغرقت على الأقل أعظم بوارج إسرائيل وهى إيلات ورجت الدنيا بذلك رجا، ولكن القوارب الإسرائيلية ظلت تقصف سواحل لبنان ومراكز المقاومة ستة أسابيع دون أن تغرق لها قاربًا واحدا ولم تفقد إسرائيل إلا طائرة واحدة ربما تكون قد سقطت بتعطل فنى، والمدافع والبطاريات والدبابات التى اشترتها المقاومة بأموال العرب وقعت كلها فى يد الإسرائيليين بذخائرها! شىء يغيظ وقطع القلب، لو كنا على الأقل أنكأنا العدو وحرقنا قلبه على مائتى دبابة مثلا وعشر طائرات وكذا ألف قتيل ثم انهزمنا لكان لنا على الأقل عزاء فى أننا كبدنا العدو خسائر، أما أن ننهزم دون أن نكبد العدو دم قلبه فهذه هى الحسرة وأرييل شارون الذى يظن نفسه قائدًا عظيمًا مدين رجل واحد فى صنع اسمه: ياسر عرفات، أما ما يتباهى به من الثغرة أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م فكانت خطأ فنيا من السادات، وقد عرف السادات كيف يتلافاه بالسياسة..

ومهما نقل فى أحمد عرابى فقد كان ثابت القلب حتى معركة التل الكبير، وقد كان معه رجال أسود هزموا الإنجليز وكبدوهم خسائر فادحة فى معركة كفر الدوار، وأسماء مثل طلبة عصمت باشا والبكباشى محروس أقندى والبكباشى محمد فودة والبكباشى سليمان تعليب وغيرها كثير يزدان بها تاريخ العسكرية المصرية، وفى الوقت الذى كان الخديو يرسل فيه برقية تهنئة للإنجليز لثباتهم أمام المصريين - ياللعجب - كان الإنجليز يهرولون حاملين جرحاهم منهزمين..

وهنا كان خطأ أحمد عرابى الأكبر وهو خطأ جهل وقلة دراية فقد ترك جبهة الإسماعيلية وقناة السويس مكشوفة وظن لقلة علمه بشئون الدنيا أن فرنسا لن تسمح لإنجلترا بالدخول ببوارجها قناة السويس، ودليسبس اشترك فى المؤامرة وخدع عرابى وبدلا من أن يختار عرابى موقع المعركة

على حافة الدلتا الشرقية عند حدود القليوبية مثلاً حيث كان يستطيع الحصول على المدد سريعًا وينهك الإنجليز بحرب العصابات فى صحراء الشرقية اختار أسوأ موقع يمكن أن يختاره قائد لدخول معركة: التل الكبير وسط الرمال حيث يحيط به العربان، والعربان كان الخديو يرسل لهم الخطابات والأموال لكى يعملوا على هزيمة جيش بلاده، والسلطان العثمانى يؤيد الإنجليز ويعلن أن عرابى عاص ضده وأن حربه جهاد.. والخيانة تمشت فى الصفوف وضباط الجركس والروم والترك سرقوا الخرائط وسلموها للإنجليز وهذه كلها أمور ما كان من الممكن أن تقع لضابط دخل مدرسة عسكرية، وكما صنع ياسر عرفات أرييل شارون، فإن عرابى الذى لم يتعلم إلا أربع سنوات فى الأزهر صنع الجنرال جارنت ولسلى وسلمه النصر مع التحيات، وهذا القائد لم يكسب فى حياته إلا هذا النصر السهل، ولكنه استحق به لقب لورد ولسلى أوف كايرو..

رغم ذلك كله فقد خسر الإنجليز فى معركة التل الكبير خسائر فادحة، والبكباشى محمد عبيد وحده ظل مع مدفعيته أربع ساعات وراء مدافعه حتى مات شهيدا ووجدنا جسده الشهيد بعد ذلك على ماسورة المدفع..

وهنا، وبعد هزيمة أليمة لم يكن يتوقعها أحد من عظماء ضباط مصر طار ذهن عرابى ولم يعد الرجل يعرف أين هو ولا ما هو فاعل! شىء كهذا ما كان من الممكن أن يحدث لضابط درس فى المدرسة العسكرية لأنه حتى الهزيمة لها أصول، والأصول تدرس فى المدارس أو فى الكتب أو فى التجربة وأحمد عرابى الذى دخل التاريخ دخولا عظيما يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١م تخلى عن مكانه فى التاريخ بعد التل الكبير وأصبح رجلاً لا تعرفه والخديو الخائن أصبح مرة أخرى ولى النعم وأقام محكمة لتحاكم الرجال الذين دافعوا عن أرض بلاده، وتشكيل المحكمة نفسه مأساة رئيسها إسماعيل أيوب باشا (شركسى) وأعضاؤها على غالب باشا (شركسى)

ويوسف شهدى باشا (شركسى) ومحمد زكى باشا (أرناؤطى) وسعد الدين باشا (رومى أى يونانى) ومحمد حمدى العظم بك (شامى) ومصطفى بك راغب (تركى) وسليمان بك يسرى (كردى) ومصطفى بك خلوصى (فارسى) ومحمد بك مختار (تركى)..

الحمد لله.. ليس فيهم مصرى واحد..

ونهاية صراع عرابى هى نفس نهاية معركة المقاومة فى لبنان.. هنا أيضا صورتان من ملايين الصور لأصل واحد فى ذهنك طبعا، صورة خروج المقاومة المحاصرة من بيروت وصورة ياسر عرفات خارجا من بيروت على مركب يونانى تحرسه بارجتان أمريكيتان..

فاسمع إذن كيف خرج أحمد عرابى وصحبه إلى سيلان..

فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢م بدأ الركب الحزين حين خرج الزعماء السبعة (أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى ويعقوب سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت) إلى قصر النيل وتلا عليهم على باشا غالب وكيل الجهادية (اقرأ فيليب حبيب) نص الأمر الصادر من الخديو توفيق (اقرأ: مناحم بيجين وآرييل شارون) بتجريدهم من رتبهم العسكرية (اقر: أسلحتهم الثقيلة) أمام جنودهم الذين كانوا يذرفون الدموع ويهتفون بحياتهم وحياة مصر (اقرأ: ثورة ثورة حتى النصر)..

وفى ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢م خرج الزعماء تحرسهم جنود الإنجليز والجماهير تحييهم إلى محطة سكة الحديد لتمضى بهم إلى السويس..

وفى عربة مقفلة وقفت قرب باب ثكنات قصر النيل جلست السيدة أم الخديو توفيق تنظر وتتشفى فيمن أعلنوا الثورة على ابنها..

وفى ميدان باب الحديد تزاحمت الجماهير تهتف: العسكر فى الطوابى يارب انصر عرابى..

وداخل المحطة لم يكن هناك إلا ضباط إنجليز وبعض رجال الخديو واستقر المنفيون فى قطار السويس..

وفى آخر الصفوف وقف رجل غاضب معووج الحلقة هو مصطفى رياض الإسرائيلى (اقرأ آرييل شارون) وهو يحترق غضبا لقد استقال قبل يومين من وظيفته وزيرا للداخلية احتجاجا على تخفيف حكم الإعدام..وفى الساعة الحادية عشرة صباحا وفى صمت تام تحرك القطار إلى السويس حيث كانت الباخرة مريوتيس (مربوط) ١٥٠٠ طن تنتظر لنقل الزعماء إلى جزيرة سيلان..

واحدة من ألوف الصور لأصل واحد خبيث..

وفى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ أصدر الخديو توفيق دكريتو بحل الجيش المصرى!..

هل سمعتم عن رئيس بلد يصدر أمرا بحل جيش بلاده اكتفاء بجيش الاحتلال؟..

(أذكر هنا قرار الخليفة المعتصم بإسقاط الجند العربى من الديوان أى فصلهم من الجيش اكتفاء بالفرس والأتراك أصل وصورة)..

وقرار إلغاء الجيش كان سطرا واحدا وصدر بالفرنسية ولم تنشره (فيما أعلم) الوقائع المصرية، إنما نشر فى جريدة المونيتير إجبسيان – وكانت الجريدة الفرنسية الرسمية للحكومة المصرية – فى عددها الصادر فى ٢٠ سبتمبر ١٨٨٢ وهذا الجيش الذى ظن توفيق أنه ألغاه عاد إلى الوجود أقوى ما يكون وفى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٢م وقف قائد الجيش المصرى الجديد اللواء محمد نجيب فى وداع فاروق آخر أولاد محمد على فى طريقه إلى الباخرة المحروسة لتأخذه إلى المنفى، هنا نجد أصلا جميلا نرجو أن يتكرر ملايين المرات..